الباب الثالث

مجرد ذكريات: الجزء الثانى
مذكرات الدكتور رفعت السعيد

(١)

هذا هو الجزء الثانى من مذكرات الدكتور السعيد، وهو يحكى فيه عن تجربته فى ميدان مختلف تماما عن ميادين تجربته فى الجزء الأول، فهو فى هذا الجزء رجل مسئول بكل ما تعنيه الكلمة من معانى، لكنه مع هذه المسئولية يحس بكثير من الاغتراب، فهو يحس بالاغتراب مع الزملاء فى داخل مصر، ومع الزملاء فى خارج مصر، كما يحس بالاغتراب مع كثير من الأجواء فى داخل المجتمعات الاشتراكية، وفى خارج هذه المجتمعات، بيد أنه يجيد الحديث عن كل هذه الاغتربات وموقفه المبدئى والنهائى منها.

وهو يقدم فى حديثه انطباعاته الذكية عن كثير جدا من محطات التيار اليسارى فى القرن العشرين، بيد أنه لا يفرض رؤى ثابتة بقدر ما يفتح للمجال واسعا للفهم والتأمل والحوار، وهو يفعل هذا لا عن عجز عن التقييم والتصنيف والتوظيف، لكنه يفعله ليترك لنفسه وعقله الفرصة كى تتأمل الحقائق والنتائج فى ضوء هادئ من بصيرة قادرة على إدراك الحق والصواب.

(٢)

يدلنا الجزء الثانى من مذكرات الدكتور رفعت السعيد على أنه عانى من أكثر من نمط متقدم من أنماط الاغتراب المركب إن جاز هذا التعبير، ولنبدأ فى تناول أكثر هذه الغربات أهمية وقسوة وتأثيرا فى فكر صاحبها، وهى غربته حين أصبح مسئولا وممثلا لمصر فى مجلس السلام العالمى متعدد الجنسيات فإذا به فى نشاطه وأدائه يواجه مواجهة قاسية بما كان ممثل الاتحاد السوفييتى فى هذا المجلس يريد أن يمليه على توجهات هذا

المجلس فى نشاطه وفى مواقفه، وإذا هو يعانى من كثرة احتكاك ذلك الرجل به وتربصه بتصرفاته وآرائه بل تحرشه بنشاطه، وإذا هو يحس أن القرار الأصوب فى هذه الحالة هو أن يعود أدراجه إلى وطنه وأن يترك هذه المهمة لغيره.

ولنقرأ هذه العبارات المعبرة بصدق ودقة ووضوح عما اعترى تفكير صاحبها الدكتور رفعت السعيد فى لحظة حاسمة، وعما وصل إليه من قرار صائب:

. . . . . .

. . . . . .

«. . . عدت إلى بيتى منهكا ليس من العمل وإنما من التوتر، واستلقيت على السرير بملابسى عدة ساعات مضت وأنا لا أفكر محاولا تهدئة نفسى. أتيت إلى هنا لأتعلم وقد تعلمت بقدر ما، ونلت قدرا من المعرفة والعلاقات والخبرة، لا حاجة بى إلى منصب أو مال، أو سفريات، نلت ما يكفينى ويزيد من مرارة التجربة، وكنت وبصدق أخشى من تراكم المرارة لتتحول إلى حرب معلنة ضد السوفييت، ومثل هذه الحرب كانت كفيلة بأن تحيل أى إنسان مهما كان صادقا ومخلصا فى توجهاته وثوريته إلى معسكر الثورة المضادة».

«ولم أكن أريد لنفسى مصيرا كهذا».

«كذلك لم أكن أريد لنفسى أن أنكسر، فأعيش منكسرا وفاقدا قيمتى وقدرتى على قول لا».

«نلت ما يكفينى» سيطرت علىّ هذه العبارة، لقد أتيت لأبقى ثلاث سنوات، تسعة أشهر فقط عبأتنى بهذا القدر من المرارة، فكيف سأجد وعاء يكفى لمرارات أكثر، قلت لأرتب نفسى على انسحاب متوازن خلال ثلاثة أشهر، بعد لحظة وجدت شيئا فى داخلى يسأل: لم ثلاثة أشهر؟ يكفى شهر واحد، ومضت كرة الثلج تستدرجنى وتلح علىّ، البلد جميل، كموسيقى ناعمة دائمة. العمل ممتع، وأفق المعرفة لم يزل متسعا، ورحلات إلى أقاصى الأرض، وأماكن لم تكن لتحلم بأن تطلع عليها».

«وتعود كرة الثلج تتدحرج، يكفينى هذه المرارة، أنا فعلا أحب الاتحاد السوفييتى وأقدر جدا الحزب السوفييتى لكننى لو بقيت سأنفجر، سأصعد إلى أعلى جبل لأصرخ بأننى ضدهما، ولن أريد ذلك، لا لنفسى ولا لأصدقائى فى مصر».

«كنت أثق أن مرارتى مشروعة، لكننى كنت أكبحها، وألوم نفسى عليها، وأخاف على نفسى».

«وبقائى فى هلسنكى سيدفع بمرارات أخرى فى حلقى، وأنا لا أريد ذلك، كما أننى لا أريد لنفسى أن تعتاد على الخضوع الذليل دون قدرة على قول الصواب، ولا أريد لضميرى أن يضمر ويتآكل حتى يفنى، وتفنى معه أخلاقياتى، وأصبح مثل بعض مَنْ أرثى لهم».

«كنت فى هذه اللحظة بالذات كراهب يهرب بنفسه من الفتنة ليحفظ إيمانه من التبدد، ويقينه من الهرب».

«كان روميش مسافرا، وكنت أحل محله فى سلطاته، بما يمنحنى إمكانات إدارية ومالية واسعة».

«أمسكت بالتليفون، طلبت المسئول الإدارى فى بيته، قلت: ثمة طارئ ملح لسفرى للقاهرة، احجز لى مكانا على طائرة تغادر غدا، وأرجو أن تبلغ السكرتارية أننى سأقضى إجازتى فى القاهرة».

«لملمت أشيائى بسرعة حاسمة وكأنى أفرض على نفسى ألا تتراجع، وعندما أتى المساء كانت الحقائب مستعدة، وكأنها تستحثنى على الرحيل».

«وفى الصباح كنت فى طريقى إلى القاهرة».

«قلت لنفسى: أنت فى إجازة فكر، تأمل، راجع نفسك، تشاور، ثم قرر».

«عدت إلى البيت، وصخب الحياة، ودفء الأسرة، لكن المرارة المريرة التى لم أستطع أن أبوح بها لأحد ظلت تحاصرنى».

«بعد أيام، وبعد مشاورات مع خالد محيى الدين وأصدقاء آخرين، أرسلت برقية اعتذار عن العودة لأسباب شخصية، مجلسنا يرشح فلانا كى يحل محلى».

(٣)

ويدلنا الدكتور رفعت السعيد على نوع آخر من الغربة عاناه فى وطنه حين يجد نفسه وهو محرر فى مجلة «الطليعة» عاجزا عن أن يتوافق مع رئيس تحريرها الأستاذ لطفى الخولى الذى بدأ يأخذ عليه مضيه فى سبيل آخر غير سبيله.

وربما كان من الضرورى أن نشير (قبل أن ننتقل إلى حديث رفعت السعيد) إلى أن هذا الخلاف المتصاعد قد وقع حين كان لطفى الخولى يسعى لأن يكون بمثابة الرجل المصرى الأول فى مجلس السلام بديلا عن خالد محيى الدين، بينما كان رفعت السعيد بكل ما أوتى من قدرة يعمل من أجل الحفاظ على مكانة أستاذه خالد محيى الدين، ومكانه فى هذا المجلس.

ومن العجيب أن رفعت السعيد يعتبر خلافه هذا مع لطفى الخولى بمثابة وقوع الواقعة، بينما يعلم أو يعلمنا أنه هو ولطفى الخولى كانا مجردين من إرادة التغيير على نحو ما نرى فى نهاية ما يرويه:

«ثم وقعت الواقعة».

. . . . . .

. . . . . .

«كان لطفى الخولى أمينا للعلاقات الخارجية فى الاتحاد الاشتراكى، وهو موقع مرموق، خاصة فى نظر عديد من دبلوماسيى البلدان الاشتراكية الذين كانوا يتواصلون مع مصر الرسمية فى أحيان كثيرة عبر قناة العلاقات الخارجية. ففى كل سفارة «اشتراكية» كان هناك مستشار مخصص للاتصال بالاتحاد الاشتراكى باعتباره الحزب الحاكم، وكانوا هم أنفسهم، فى أغلب الأحيان، المكلفين بالاتصال بمجلس السلام، ومن ثم كنت أتصل بهم ليفاجأ لطفى الخولى بهم وهم يرددون ذات الموقف، وذات الحجج التى نرددها فى جلساتنا معه.. أو مع غيره».

«وذات يوم زاره فى مكتبه فى الاتحاد الاشتراكى فودور استفان مستشار السفارة المجرية، وكان صديقا حميما لى، وكنت قد أبلغته رسالة إلى حركة السلام المجرية

شارحا وجهة نظرنا، وتلقى فودور رسالة تطلب منه أن ينقل إلى لطفى الخولى أمل لجنة السلام المجرية فى الحفاظ على دور خالد محيى الدين فى حركة السلام، وكانت الرسالة مشفوعة بحديث كثير عن دور خالد محيى الدين العالمى، وعن تأثير الموقف منه على الموقف من المجلس المصرى للسلام».

«وخلال النقاش أسهب فودور فى تقديم حجج ومعلومات أفصحت عن أن ثمة مصدرا مصريا حدثه عنها، وانتهز لطفى الخولى الفرصة وثار ثورة ساخنة (ذات اللفظ الذى قاله لى فودور) وهدده أنه إذا لم يبلغه باسم «المصرى» الذى حدثه فى الأمر، والذى طلب إلى المجلس المجرى للسلام أن يتدخل، فإنه بصفته أمينا للعلاقات الخارجية سوف يوجه رسالة إلى الحكومة المصرية يبلغها فيها بقطع العلاقات والاتصالات بين الاتحاد الاشتراكى والحزب المجرى».

«وارتعب فودور وأدرك أنه قد وقع فيما يجب ألا يتورط فيه، خاصة أن لطفى استخدم عبارات كبيرة، وأسماء كبيرة كالسادات، وما إلى ذلك، ولو وجه لطفى رسالة كهذه لانتهى فودور نهائيا. حاول الرجل الإفلات، لكن لطفى كان قد أطبق على عنقه، وأمسك به فى مقتل، وأخيرا اعترف فودور بأننى الذى حدثته فى الأمر».

«كان مكتب لطفى فى الدور الثانى من ذات المبنى الكبير للاتحاد الاشتراكى، وكانت مكاتب مجلس السلام فى الدور التاسع، وصعد فودور فورا ليعتذر، وينذرنى، وهو يتصبب عرقا، بأنه أبلغ لطفى بما دار بيننا».

«وأدركت أننى مقبل على معركة كنت أتوقعها منذ البداية».

«فأنا فى نهاية الأمر محرر بالطليعة التى يرأس لطفى تحريرها».

«وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى بالطليعة لأتسلم رسالة غاضبة من رئيس التحرير تتهمنى بالتقصير فى أداء واجباتى الوظيفية، وتحذرنى، وبألفاظ قاسية، من استمرار هذا التقصير، ورددت على الرسالة برسالة مهذبة، أو حاولت أن تكون كذلك، وإن كانت قاسية، ثم وبناء على نصيحة من إنجى رشدى أخذت الرسالتين إلى الأستاذ هيكل قرأ وأبدى دهشته، ثم حكيت له القصة، ضحك وقال: «لا تهتم فأنا الـ Boss هنا».

(٤)

ويدلنا الدكتور رفعت السعيد على نوع من أنواع الغربة التى واجهها فى حياته اليسارية حين كان يفاجأ باستغلال القضايا الإنسانية واليسارية الكبرى استغلالا نفعيا يخلق منها قضايا فرعية صغيرة وضيقة الأفق على نحو ما حدث، وما اكتشفه هو نفسه صدفة من المتاجرة باسم حزب «التجمع» فى بيروت فى أثناء عصر الحرب الأهلية اللبنانية:

«. . . ذات يوم كنت فى زيارة لطلال سلمان فى جريدة «السفير».

«اشتكى (أى طلال) طويلا من حاجزنا الذى لم يجد لنفسه مكانا إلا عند مدخل «السفير»، سألت: أى حاجز؟ قال: حاجز حزب التجمع.

ـ أى تجمع؟

ـ أنتم.

ـ نحن؟ صرخت فى فزع مندهش».

«وإذ تملكتنى الدهشة توجهت على الفور عند المنحنى وجدت حاجزا براميله مكتوب عليها «حزب التجمع الوحدوى ـ مصر»، صعقت، توجهت إلى الشباب الواقفين أمام الحاجز، سألتهم مَنْ هم؟ سألونى مَنْ أنا؟ ذكرت اسمى، البعض سمع عنه، والبعض لم يسمع، فهمت أن مسئولهم أو زعيمهم شخص مصرى اسمه «أبو خالد».

«فى اليوم نفسه كنت عند أبو إياد حكيت له قصة هذا الحاجز قال: إنه تركه إكراما لنا، (ولم أصدقه) وطلبت منه رفع الحاجز، كتب قصاصة من ورق، وفيما نشرب القهوة ونحكى عن أوضاع القضية، أتى رجاله بشباب الحاجز، وبعدهم أتوا بأبو خالد (فيما بعد علمت أنه عمل كنقاش ثم اكتشف أن لعبة السياسة والحواجز والإتاوات وجمع التبرعات باسم التجمع أكثر ربحا، خاصة أن أسهم التجمع كانت عالية فى سماء بيروت وغيرها من المدن العربية بسبب رفضنا لكامب ديفيد، وما نتعرض له من ضغوط ساداتية كنتيجة لهذا الرفض)».

«أتوا بأبو خالد، كان واضحا أنهم أثقلوا عليه بمعاملة قاسية، ارتجف عندما وجد نفسه أمام أبو إياد، سأله: هل تعرف الأستاذ؟ وأشار إلىّ، ولم يعرفنى الرجل، ونال عدة صفعات، لكنه فى النهاية تحدث عن النضال، ورغبته فى مواجهة العدو الصهيونى، قال أبو إياد: أنا أعرف دواء هؤلاء، وأمر بإرسالهم إلى الجنوب حيث المواجهة مع إسرائيل».

«وعلمت فيما بعد أنهم عادوا، وعاد أبو خالد ليعمل نقاشا».

(٥)

فإذا أتينا إلى موقف اليسار من قضية السلام والصراع العربى ـ الإسرائيلى وجدنا رفعت السعيد يعبر فى مواضع كثيرة عما كان يشعر به من الغربة تجاه زملائه من اليساريين الذين لم يفهموا خطواته التى خطاها من أجل تواصل الحوار العربى ـ الإسرائيلى الداعى إلى استخلاص العون للقضية العربية فى صراعها المرير مع إسرائيل والقوى الدولية المؤيدة لها.

وفى ذكاء شديد يحرص الدكتور رفعت السعيد على أن يقص علينا قصة يشوش بها باقتدار وهدوء على مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات، وذلك من خلال الإيحاء الصريح بأنه هو نفسه كان قد عرف أن الاتصالات مع الإسرائيليين كانت قد بدأت قبل ذلك بكثير، وهو معنى لم ينكره أحد من الرسميين المصريين حتى وإن لم يثبتوه، لكن رفعت السعيد، بما أوتى من قدرة، يسوقه كيما يدلنا على أن القنوات كانت متعددة، وأنه هو نفسه كان يعرف بوجودها منذ فترة وإن لم يصدق:

«... ذات يوم وفيما أندفع ظهر السبت إلى مدخل (فندق) الـ «كاساديلا كولتورا» كان ثمة شخص يجلس بهدوء يرتدى قبعة عالية، ويمسك بيده عصا هو ليس بحاجة أن يتكئ عليها (أشياء تلفت انتباهك، كى تتعلق بها وتنسى ما هو مهم من أشياء مثل الشكل والملامح وغيرها)، نظر إلىّ دون اكتراث، وظل جالسا مكانه، فى فترة الاستراحة كان لم يزل مكانه، فقط زاد سيجارا ضخما دخانه يعبث برائحة المكان. سألت دينافورتى (إيطالية عاشت فى مصر طويلا، وكانت مكلفة بالأعمال الإدارية

الخاصة بالمؤتمر) عن هذا الرجل، أجابت بدهشة: إنه ينتظرك.. سأل عنك.. وجلس.. وتصورت أنك تعرفه وتنتظر الانتهاء من الجلسات لتخرجا معا، ذهبت إليه قلت: أنا فلان، قال: أعرف. تصاعد مزيد من الدخان من سيجاره، أحكم القبعة العالية وكأنه يلفت نظرى إلى وجودها، أمسك بالعصا وانتحى بى فى أحد الأركان».

«قال دون أن يمنحنى فرصة المقاطعة: «أنا من إسرائيل.. أرجوك احمل الرسالة التالية إلى الرئيس السادات.. لماذا توقفت الاتصالات؟ نحن جاهزون لمواصلتها». (كانت العبارة متقنة كقذيفة واحدة، تنطلق دفعة واحدة، حيث لا تتيح لك فرصة القول بأنك لست ممثلا للحكومة ولا للرئيس، أو أن تسأل مَنْ أنت؟ أو عن أى اتصال تتحدث؟)».

«قال العبارة وانتهز فرصة ذهولى ومد يده بالسلام وذهب».

«طوال الليل، وطوال رحلة العودة لهلسنكى كنت أستعيد الشكل والملامح والعبارة وأفكر.. لماذا أنا؟ وهل الإسرائيليون سذج إلى هذا الحد؟ إلى درجة أن يتصوروا ببراءة أننى يمكن أن أحمل هذه الرسالة؟ وإذا كانت ثمة اتصالات، فلماذا لم يلجأوا إلى قنواتها؟».

«وخيّل إلىّ أن البعض الذى سمع كثيرا عن مؤتمر يفتش عن سلام عادل عبر عمل وتواصل شعبى، أراد أن يبلغنا، وببساطة، أن العلاقات الرسمية بدأت، وأن السلام الرسمى ممكن، وربما أيضا أنه لا مبرر لكل ما تفعل».

«تكاثرت الاحتمالات ولم تزل تتكاثر برغم فوات الزمان، وثبوت الرؤية، والتأكد من أن العلاقة كانت متواصلة فى ذلك الزمان».

«قال أحد المتحمسين فى صناعتها عندما حكيت له هذه الحكاية، ربما كان طرف إسرائيلى ما قد أراد الضغط علينا بتسريب معلومة عن الاتصالات السرية إليكم».

«المهم وصلت هلسنكى مساء الأحد، صباح الاثنين كنت أشرب القهوة مع السفير المصرى جمال بركات فى مكتبه بالسفارة، حكيت له القصة كما هى، استعادها مرتين، صمت قليلا، ولعله استعاد كل خبرته فى السلك الدبلوماسى ثم وقف بقامته

القصيرة وقال: كصديق أنصحك ألا تدخل نفسك فى عش الدبابير، انس الموضوع وكأنه لم يحدث، وأنا من ناحيتى سأنساه ولن أبلغ القاهرة بشىء».

«ومع تواصل الحوار قلت: إذا أخفيت الموضوع فقد يتهمنى البعض بأننى اتصلت بالأجهزة الإسرائيلية سرا، قال: فى هذا عندك حق، واتفقنا أن يبلغ القاهرة برسالتى».

«وبعد يومين تلقيت مكالمة من خالد محيى الدين.. السادات غاضب جدا (ربما لأنه أحس بتداخل الخطوط، أو أنه لم يفهم باعث الإسرائيليين على مثل هذا الاتصال)، وأن د. حافظ غانم أمين عام الاتحاد الاشتراكى قد أصدر قرارا بفصلى من عضوية الاتحاد بتهمة الاتصال بالعدو الصهيونى (ألغى هذا القرار بعد أيام، فقد كان مجرد إنذار بألا أفعلها مرة أخرى وكأننى فعلتها فى المرة الأولى)».

«ولم أزل أستعيد فى ذاكرتى هذه الواقعة، دون إمساك بحقيقة بواعثها».

(٦)

ويعترف رفعت السعيد أنه بسبب غربته مع اليسار المصرى وتوجهاته المتعددة كان قد اضطر فى بعض الأحيان إلى أن ينشر كتاباته باسم مستعار حتى لا يصطدم مع التيار الذى ينتمى إليه:

«... وأثمرت جلسات السكرتارية كتابا من أحب ما كتبت، قرأه خالد محيى الدين فى واحدة من زياراته لهلسنكى لحضور اجتماعات رئاسة المجلس، أعجب بالكتاب، لكنه تعجب من رغبتى فى نشره، فسوف يثير زوبعة ليس ضدى شخصيا فحسب، ولكن ضد تيار بأسره، وربما ضد المجلس المصرى للسلام أيضا، وهكذا اتفقنا على أن يصدر كتاب «تأملات فى الناصرية» باسم سرى «محمد فريد شهدى» (اسم مركب من «محمد فريد» الزعيم الوطنى الأقرب إلى قلبى، وشهدى عطية الرفيق المحبب إلى قلبى أيضا)، وقد نشرت العديد من المقالات والدراسات فى مجلة «دراسات عربية» بهذا الاسم، ونشرت «دار الطليعة» (بيروت) الكتاب، طبعته مرتين بالاسم السرى، ثم تجاسرت (بعد أن تغير الزمن بعض الشىء) فنشرته باسمى الحقيقى».

(٧)

ويتحدث الدكتور رفعت السعيد عن غربته مع بعض الفصائل الفلسطينية التى لم تكن حريصة على ذلك التقارب الذى بدأ بين حزب التجمع المصرى والرئيس مبارك فى بداية عهده، بينما كانت هذه القوى والفصائل الفلسطينية والعربية لاتزال حريصة على استمرار قطيعة اليسار عن رموز الدولة المصرية :

« . . . كان رحيل السادات بداية لمشكلات جديدة مع البيروتيين الذين كان البعض منهم يتصور أنه يوجه رياح الكون ويحدد اتجاهاتها، فكثير من قادة المنظمات الفلسطينية تصور أن واجبنا تأييد اغتيال السادات (وقد أعلنا إدانتنا للاغتيال كمبدأ، وإدانتنا لسياسات السادات)، وتصور البعض أنها الفرصة لتأكيد سياسته الخاصة بالعنف المسلح، وأنها الفرصة لمواصلتها، حتى يتم إسقاط النظام، والأهم من ذلك كله إسقاط كامب ديفيد».

«فإذ لاحظوا أن الرئيس الجديد قد استقبل زعماء المعارضة، وإذ لاحظوا هدوءا فى لهجتنا، مع إصرارنا على رفض السياسات الساداتية (إلى درجة أننا طالبنا الجماهير بأن تقول «لا» للرئيس المرشح لأنه أعلن التزامه بسياسات سلفه) فقد صبوا هجوما عنيفا علينا امتد من الصحف إلى البيانات، وشارك فيه لبنانيون مثل محسن إبراهيم الذى ألقى خطابا حادا هاجم فيه، وبالاسم، تهادن خالد محيى الدين ورفعت السعيد، لأننا قبلنا مقابلة الرئيس مبارك، وكأنه كان من المفترض أن نرفض».

«وفى إطار هذا المناخ المكهرب وصلت إلى بيروت، وفور وصولى انتشرت شائعات افترشت مساحات كبيرة من صحف كثيرة، إننى قادم للوساطة بين كامب ديفيد المعدلة (مبارك) وبين أبو عمار (وكأن هذه الأطراف كانت تفتقد الصلة فيما بينها)».

«وفى تحد للأقاويل والهجمات ضد حزب التجمع، اقترحت أن أتحدث فى مؤتمر صحفى، وقام الصديق زياد عبد الفتاح مدير وكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» بالدعوة للمؤتمر».

«ولاحظت (للأسف) أن أكثر الذين أتوا ودفع بهم إلى المؤتمر ليوجهوا أكثر الأسئلة الهجومية حدة، كانوا من أطراف أو شوائب اليسار المصرى المختلفة، المهاجمون

الأصليون تستروا، أو تحرجوا (بسبب صداقات قديمة ولابد لها أن تستمر)، أو لم يرغبوا فى مجابهة تفسد المودة الظاهرية مع حزب مصرى هو الأكثر نضالية ضد كامب ديفيد».

(٨)

وها هو رفعت السعيد يحرز نجاحا ساحقا فى مواجهة هذه التيارات، ويستخدم بلاغته وقوة حجته وقدرته على الجدل فى مواجهة علنية من أجل الانتصار للخط السياسى الذى سار فيه حزب التجمع منذ ذلك الحين:

«وانهمرت الأسئلة، أو الهجوم الذى تمت صياغته فى صورة أسئلة تتحول عادة إلى خطب ملتهبة بحماسة غير منضبطة. الإدانات تراكمت بلا حصافة ولا تردد، وقررت أن أستخدم الأسلحة الثقيلة فى مواجهة الأسئلة الثقيلة. كانت ردودى عنيفة وحادة، ومع العنف فى الإجابات ساد الهدوء، فقد شعر السائلون أن هجوما مضادا يمكنه أن يضعهم فى حرج».

«شاب مصرى قال إنه يسأل نيابة عن مجلة «الهدف» (الجبهة الشعبية) تحدث ربع ساعة أو أكثر ليتهمنا أننا كنا دوما متهادنين مع الحكم، خاصة مع السادات، وأن الجماهير المصرية كانت جاهزة لتحرك أكثر حدة لولا أن «القيادة» (التى هى نحن) تخلت عنها وتركتها ضائعة، وكانت إجابتى بسيطة: «وأين كنت أنت وزملاؤك؟ تركتم الجماهير الجاهزة للثورة وأتيتم إلى بيروت خوفا من التصادم حتى بالكلمات أو حتى الهمس بها؟»».

«وصمت المسكين.. وصمت كل المصريين.. وساد المؤتمر الصحفى هدوء، فالفلسطينيون لا يريدون توريط أنفسهم».

«لكن تحييد المدفعية المصرية أجبر الآخرين على الحديث، وتحدث شاب من مجلة «الحرية» (الجبهة الديمقراطية) وتحدث بأسلوب نظرى معقد عن دور الفرد، ودور النظام، وبليخانوف ورؤيته لدور الفرد، وانتقادات لينين لها، وخلص من ذلك إلى فكرة تقول: إن النظام العام يملى إرادته على الحاكم، وإن مبارك أراد أو لم يرد هو

مضطر لأن يصبح ساداتا آخر، بالسياسات نفسها، والمنهج نفسه، والأسلوب نفسه».

«وتحدثت باختصار عن الفكرة النظرية التى فهمت خطأ حول دور الفرد، وعن أن له دورا ما، خاصة فى دول العالم الثالث، سألته: هل ستالين فعل مثلما فعل لينين؟ الحزب هو الحزب، فلم لم يفرض إرادته على الفرد الآخر؟ ثم ألقيت إليه بقنبلة لم يكن يتوقعها قلت: هل نايف حواتمة مثل ياسر عبد ربه؟ وهل كل منهما مثل الآخر طالما أن الحزب سيملى إرادته الواحدة التى لا تتغير بتغير الأفراد؟».

«وكان زعيما الجبهة الديمقراطية التى تحدث هذا الشاب باسمها يخوضان صراعا مريرا ومكتوما ومتكتما عليه فيما بينهما، وكنت آتيا لتوى من مقابلتين منفصلتين مع كل منهما استمعت فيها إلى اتهامات عديدة متبادلة».

«سقط السؤال فوق رأس الشاب المسكين، ولم يجد إجابة».

«وأيقن الحاضرون أنه ليس من السهل افتراسى، فأصبحت الأسئلة أهدأ، والأسلوب أنقى، ومن ثم كانت الإجابات أكثر هدوءا».

«وبعد هذا المؤتمر الصحفى هدأت بيروت، سواء اللبنانية أو الفلسطينية، وصمتت أصوات الهجوم والتهجم ضد حزب التجمع».

(٩)

ويدلنا الدكتور رفعت السعيد على ألذ أنواع الغربة التى عاشها حين وجد هو وأقرانه من مؤسسى منبر (ثم تنظيم ثم حزب) التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى صعوبة مذهلة فى الحصول على عشرة توقيعات لعشرة من أعضاء مجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى من أجل استكمال الإجراءات الخاصة بقيام هذا المنبر، ونحن نرى درجة التشويق فيما يرويه رفعت السعيد عن هذه الوقائع عالية إلى حد مثير، وقبل هذا فإنها تقدم تقييما واضحا لرموز يسارية معروفة من وجهة نظر صاحب المذكرات

. . . . . .

. . . . . .

«لم يكن الأمر سهلا».

«فمنذ اللحظة الأولى قفزت صيحات متطرفة تستنكر فكرة العمل فى إطار حزب السلطة (الاتحاد الاشتراكى)، وأخرى تستنكر القبول بشروط برنامجية، لكن التيار الأكثر تعقلا فى اليسار قبل بالفكرة ليس باعتبارها منحة، وإنما كمعركة، نصحح مسارها وأدواتها وتوازناتها عبر الممارسة».

«وحيث تراكمت صيحات اليساريين المتطرفين (العمال الشيوعى، و٨ يناير) فى سلة الرفض للفكرة، تمحورت مجموعة أخرى حول عبد الرحمن الشرقاوى سميت بمجموعة روز اليوسف (صلاح حافظ ـ حسن فؤاد ـ أحمد حمروش)، ومعهم سعد كامل، ومحمود توفيق».

«ولم تكن هذه المجموعة راضية عن تولى خالد محيى الدين رئاسة المنبر، كما لم تكن راضية عن التوجه الذى بدأ فى التبلور عبر المشاورات الأولى، والذى تمثل فى أن المنبر مفتوح لكل القوى اليسارية والتقدمية، أى هذا التوجه الذى عبر عن نفسه بعد أن نضج فى فكرة المنبر المتعدد التيارات. والغريب أن هذه المجموعة، وهى ذات ميل سياسى معتدل للغاية. وبعيد تماما عن التشدد، كانت ترى ضرورة أن يقتصر تشكيل منبر اليسار على العناصر الماركسية (ربما لأن ذلك يفسح مكانا للجميع فى القيادة، بينما المنبر المتعدد التيارات يفرض على الماركسيين أن يمثلوا بعدد محدود جدا فى القيادة)».

«لكن مسيرة تأسيس المنبر تواصلت».

«وعقدت الجلسة الأولى للتشاور فى بيت حسين فهمى، وحضرها فيما أذكر: خالد محيى الدين ـ حسين فهمى ـ د. فؤاد مرسى ـ د. إسماعيل صبرى ـ د. إبراهيم سعد الدين ـ لطفى الخولى ـ أبو سيف يوسف وأنا».

«وفى هذا الاجتماع طرحت فكرة المنبر المتعدد التيارات، ولقيت قبولا من الجميع، وتوالت الاجتماعات بعضها فى بيت د. فؤاد مرسى، والأغلب فى بيت حسين فهمى، واتسعت دائرة الاتصالات، وأبلغنا د. إسماعيل صبرى مبتهجا بأن د. يحيى الجمل (قومى عربى) قد وافق على الانضمام إلينا، وقد أشار بدوره بالاتصال بالدكتور

محمد أحمد خلف الله، الذى رحب هو أيضا بالفكرة وقبل الانضمام إلى المنبر، وقام خالد محيى الدين وأنا بزيارة لكمال رفعت، ولطفى واكد فى دار النشر الخاصة بهما، وكان لطفى واكد متحمسا، وكذلك كمال رفعت، لكن كمال رفعت كان يراهن على التأنى حتى يجمع العناصر الناصرية الشابة التى كانت تكثر من الصياح والحركة بأمل أن يصبغ المنبر بصبغة ناصرية. والصبغة الناصرية تعنى عندهم أن يكون رئيسه ناصريا».

«وفيما انهمك البعض فى إعداد مشروع البرنامج ومشروع اللائحة، كان البعض (خالد محيى الدين وأنا) يبذل جهدا مضنيا فى استيفاء شرط التوقيعات العشرة من أعضاء مجلس الأمة، أو اللجنة المركزية».

«وفى البدء كان هناك أربعة توقيعات: خالد محيى الدين ـ د. فؤاد مرسى ـ أبو سيف يوسف ـ لطفى الخولى».

«اتصلت بزكى مراد الذى سافر بالطائرة إلى أسوان ليعود بتوقيعين: عبد الهادى يعقوب، وعبد الستار ميرغنى (أحدهما عضو مجلس أمة، والثانى عضو لجنة مركزية)».

«ويبقى أربعة».

(١٠)

وهنا يأتى حديث رفعت السعيد المنحاز بوضوح ضد توجهات القطب الناصرى والبرلمانى كمال أحمد وتصرفاته:

«... وبدأت مساومات مريرة ومضنية مع مجموعة من الشبان الناصريين كان يمثلهم فى التفاوض كمال أحمد، وعدد آخر من الشباب الأصغر سنا كانوا يبالغون فى قوتهم، وكنا نعلم أن لديهم توقيعين فقط، لكننا بحاجة إلى هذين التوقيعين».

«كانت ساقية المناقشات تدور بلا توقف، وتحولت إلى صداع مرهق، الكلام السياسى كثير لكنه فى نهاية الأمر ينحصر فى أن كمال أحمد يشترط أن يكون رئيسا للمنبر، بزعم أن الشارع السياسى لن يقبل زعيما لليسار غير ناصرى (كان يكرر بلا ملل ولا تردد يريد ناصريا ولو كان لوحا من خشب)».

«كان قادة الناصريين المعتمدين فى السجن، وكان كمال رفعت يحاول جهد طاقته أن يحتوى هؤلاء الشبان دون جدوى، بل إن كمال أحمد كان يحرضهم ضده خوفا من أن يصبح كمال رفعت هو المتحدث باسم الناصريين، وبدأ هؤلاء الشبان فى ترويج فكرة أن كمال رفعت اختلف مع عبد الناصر، ومن ثم فهو ليس ناصريا».

«وعندما استطالت الاجتماعات إلى ما لا نهاية، واستطالت الخطب إلى حد الملل، اكتشفنا أن هؤلاء الشبان يحاولون استدراجنا إلى حافة اليوم المحدد للاجتماع المشترك الذى سيعلن إقرار برامج المنابر، معتقدين أننا إن وصلنا إلى الحافة وأصبح الخيار ما بين منبر بزعامة كمال أحمد أو لا منبر على الإطلاق، فإننا سنرضخ لزعامة كمال أحمد».

«ولهذا قررنا أن نواصل اتصالاتنا لتجميع بقية التوقيعات سرا، وأن نمد لهم حبال المناقشة لعلهم يقتنعون».

«وبالفعل وفيما كان النقاش ممتدا معهم ليستعيد ذات الكلمات وذات الحجج، كنت فى غرفة أخرى مجتمعا مع ثلاثة هبطوا علينا من السماء عاملان وفلاح كانوا قد حاولوا تأسيس منبر عندما فتح الباب على مصراعيه، فلما أغلق أتوا إلينا».

«محمد عبد السميع ـ على طلخان ـ محمود عيد، والثلاثة أعضاء فى اللجنة المركزية، رحبنا بهم، وقد حاول محمد عبد السميع فى البداية أن يبدو مهتما بمشروع البرنامج مطالبا بإضافات متعلقة بالشريعة، وقد سويت معه الأمر بسهولة، وبعد مناقشات هامشية وقع الثلاثة وأصبح الموقعون تسعة».

(١١)

ونأتى مع رفعت السعيد إلى الحلقة الأخيرة فى المسلسل المشوق المتميز الذى صور به بدقة ومهارة نشأة حزب التجمع حين كان لايزال منبرا، وقد انتهت هذه الحلقة نهاية سعيدة بانضمام قبارى عبد الله إلى الموقعين ليكونوا عشرة، ولينشأ منبر لليسار:

«وبقى واحد».

«وخيل إلىّ أن الأمر قد وجد حلا سعيدا، فهناك أحمد طه (عضو مجلس الأمة) ولابد أنه سيوقع».

«وببساطة اتصلت به تليفونيا لكن إجابته كانت غير مشجعة، أطال فى الحديث، وتحدث عن شكل المنبر وتكوينه، وأخيرا وعندما علم أن لدينا تسعة توقيعات، وعد بأنه إذا توقف الأمر عليه فإنه سيوقع».

«متى ؟».

«أجاب: فى الاجتماع المشترك».

«ولم يكن بالإمكان المغامرة فى أمر كهذا أن تذهب إلى الاجتماع بتسعة توقيعات بأمل أن يوقع لك العاشر فى الاجتماع ذاته، فماذا لو حضر متأخرا، أو لم يحضر أصلا، أو استجد ما جعله يتحفظ ؟».

«وقررنا أن نبحث عن توقيع عاشر».

«كل ذلك والنقاش ممتد، ساخن، وطويل، وعمل مع مجموعة الشباب الناصرى، وكلما اقترب الوقت تصوروا أننا سنركع أمامهم ونقبل ما يشترطون، ومن ثم كانوا يزدادون تشددا».

«وتذكرت قبارى عبد الله (عضو مجلس الأمة)، وأسرعت إلى عبد المنعم القصاص الذى كان على علاقة حميمة به، وأتى قبارى، كنت أراه لأول مرة، كان بسيطا وسمحا وصريحا، قال إنه يريد أن يستشير البعض».

«واستعار سيارة ليسرع إلى الزيتون، لم يكن هناك وقت كاف، فقط بضع ساعات على الاجتماع المشترك، وأسرع إلى الزيتون ليستشير صديقا له هو محمد عباس فهمى، وأشار صديقه ألا يوقع».

«ورجع الرجل مهموما».

«لكن الأمر لم يحتج إلى نقاش طويل معه».

«فقط قلت له بوضوح إن توقيعه ضرورى كى يقوم منبر علنى لليسار».

«وساعتها قبل أن يوقع راضيا».

«اكتملت التوقيعات العشرة».

«دخلت إلى ذات الغرفة التى شهدت المباحثات المطولة مع الناصريين، كان خالد محيى الدين يبدو منهكا من فرط ما صبر واحتمل، مررت إليه ورقة صغيرة «قبارى وقع واكتملت التوقيعات العشرة»، عاد الصفاء إلى ابتسامته، وتفاهمت أعيننا أن نواصل النقاش».

«لكن أسلوبنا فى النقاش اختلف قليلا، نحن الآن لسنا بحاجة إلى أن نخضع لشروط غير مقبولة، وفيما النقاش ممتد خرج كمال أحمد، واستدعتنى السكرتيرة لأمر مهم، وكان الأمر المهم أن كمال أحمد يريد أن يتحدث معى منفردا، وسرنا معا عبر الردهة الطويلة فى الدور التاسع من مبنى الاتحاد الاشتراكى (حيث مقر المجلس المصرى للسلام، وحيث أجرينا أغلب مباحثاتنا واتصالاتنا). اتخذ حديث كمال أحمد مذاقا خاصا، وعبر التفافة طويلة، ومبهمة فى أغلب الأحوال، حاول أن يفهمنى أنه ليس ناصريا بالمعنى المفهوم، لكنه يميل إلى الماركسية، وأنه على علاقة خاصة جدا ببعض الماركسيين فى الإسكندرية، ولعله قد تصور أنه بذلك يمكنه أن ينال منى ما يريد».

«ولم أنطق، استمعت فقط دون تعليق».

«وكانت الساعات الباقية على الاجتماع المشترك قد تآكلت، ولم يتبق سوى بضع دقائق تكفى كى يهبط خالد محيى الدين بالأسانسير ليصل إلى حيث ينعقد الاجتماع المشترك فى المبنى ذاته».

(١٢)

نتنقل بعد هذا كله إلى طراز آخر من الاغتراب يمثله الاغتراب الذى أحس به صاحب المذكرات أمام القوة التى أصبحت بمثابة المهيمنة بمفردها على مقدرات السياسة الدولية فى عصر أحادية القطب !!

ونحن نقرأ لرفعت السعيد حديثا مختلفا عن الحياة الأمريكية، وهو حديث مختلف فى كل مكوناته، مختلف فى معطياته، ومختلف فى بداياته، ومختلف فى نهاياته، ومختلف أيضا فى موضوعاته.

ها هى الفرصة تتاح لرفعت السعيد لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا هو على حد ما يروى لنا يفاجأ بما اكتشفه فى نفسه من صعوبة أو استحالة تقبله لحديث الأمريكيين عن ديمقراطيتهم:

«... ومنذ وقوفك على الخط الأصفر الفاصل بينك وبين رجال الجوازات الأمريكى، تجد كل شىء، وكل شخص، وهو يلح بشكل مفتعل، ومنفعل، على الإيحاء لك بأنك فى عالم آخر، فإن لم تتقبل الإيحاء برضاء (ورضا) مستسلم، فإنه يخزك كى تبتلعه مرغما».

«وثمة مرافقان رجل وامرأة، أبيض وسمراء، أو بالدقة سوداء، وتظل هذه السمراء تلح منذ الهمسات الأولى على أنها شىء مختلف، مضطهدة ليس لأنها زنجية، وإنما لأنها يسارية، لأنها كانت على علاقة وثيقة بأنجيلا ديفيز، وقد يكون هذا صحيحا، لكن المفروض والمفترض أن تتقبله بتشكك يستشعر الشوك فى كل كلمة، والشك فى كل تصرف».

«واكتشف أننا مجموعة: فلبينى (صحفى) مالطى (نائب وزير الخارجية) أفغانى (رئيس وكالة الأنباء الأفغانية التابعة للمجاهدين طبعا) وأردنى (سفير)».

«جلسنا فى محاولة للتعارف، انتفض الفلبينى دون توقع، ودون مناسبة ليصرخ فى وجه الأمريكيين: «لماذا تبقون فى بلادنا؟ لا نريدكم ولا نريد قواعدكم»، لم يعلق على حديثه أحد، لكن شيئا ما حدث، فقد كان فى اليوم التالى هادئا.. سعيدا.. ولم يثر قط موضوع القواعد مرة أخرى».

«وهدف الإبهار يبقى متسلطا، فهم يتعمدون أن ينتقلوا بنا كل يوم عدة مرات من قاعة لأخرى، ومن فندق لآخر، رغم أنه بالإمكان مواصلة اللقاءات فى قاعات الفندق الذى نقيم فيه».

(١٣)

ويحرص رفعت السعيد على أن يضرب الديمقراطية الأمريكية فى مقتل حين يصفها بأنها ديمقراطية تقوم على التلقى فقط (!!):

«ومنذ المرة الأولى لاحظت أن الديمقراطية الأمريكية تقوم فقط على أساس التلقى، تعد الندوات إعدادا متقنا، القاعة مغلفة بالإبهار.. المقاعد وثيرة.. مشروبات ومأكولات بلا نهاية.. محاضرون أذكياء يتسللون عبر الموضوعات بكفاءة، ويغلفون كل شىء بخفة دم غير مفتعلة، فتجد نفسك تبتسم، ثم تضحك، وتستمع وتستمتع، وتفهم فى آن واحد، والزمن محسوب بعناية فائقة، فما أن ينتهى آخر المتحدثين حتى تكتشف أن الوقت قد داهمنا، وأننا مضطرون إلى القفز إلى مكان آخر، ولا يبقى أمامك سوى أن تبتلع تساؤلاتك أو تعليقاتك».

«أدركت اللعبة من المرة الأولى، وعندما تكررت أيقنت أنها مقصودة، وقررت أن أشعرهم أننى لست ساذجا إلى هذا الحد، حاولت أن أناقش الموضوع مع المالطى فقال: أنا هنا كى أتعلم. أريد أن أعرفهم جيدا وليس لدىّ ما أقوله، والأردنى قال: أنا سفير ولا أريد تعقيدات قد تدمر مستقبلى».

«واعتمدت على قدرتى على المباغتة، أخذونا إلى قاعة رائعة واصطف على المنصة متحدثون من هيئة المعونة الأمريكية، بعد ساعتين بالضبط لدينا موعد مهم فى الكونجرس، كل منا مع بعض المختصين أو الأعضاء المهتمين بمنطقته».

«مضت ساعة ونحن نسمع، ونستمتع، ونضحك. نتناول نسكافيه أو شاى أو حلويات. ساعة ونصف ساعة ولم يبق سوى وقت قصير، ومتحدث لم يتكلم بعد، مكلف بأن يستهلك كل ما تبقى من وقت، وقبل أن ينطق كنت أتحدث، قلت: لسنا طلبة فى مدرسة ثانوية نستمع ولا نناقش، أنا لدىّ أسئة وتعليقات».

«قال رئيس المتحدثين (وهو زنجى) بقرف: بعد أن ننتهى من الحديث، قلت: ستنتهون بعد أن ينتهى الوقت».

(١٤)

عند هذا الحد يجد رفعت السعيد (بما تمرس به من قدرة على الجدل) أن فرصته لتحقيق الفوز قد حانت، وها هو يلتقط الفرصة (ولا نقول ينتهزها) ويبدأ فى رواية ما فعل وما أمكنه به أن ينتصر على دعاوى الأمريكيين:

«. . . ولم أتركه يقاطعنى ومضيت قائلا : على أية حال أنا لست مهتما كثيرا بالأرقام التى أوردتموها وتحدثتم عنها، وحتى لم أتابعها (وقعت هذه العبارة عليهم وقع الصاعقة) فقد كنت مشغولا بأمر آخر يقلقنى، ويقلقنا جميعا فى مصر، هل ثمة دور تجسسى تقوم به منظمتكم؟ والذى يدفعنا إلى ذلك الحقل من الشكوك هو إصراركم على التغلغل فى أعمق أعماق المجتمع، تذهبون بأنفسكم إلى القرية والحى، فلماذا؟ (الصاعقة أشعلت نارا فى القاعة، خاصة المنصة، لقد تعمدت أن أقذف بحجر ضخم فى زجاج الحديث حتى أستخدم فرصة الدقيقة التى انتزعتها بأقسى استخدام ممكن».

«ووجم الجميع».

«كان الأردنى ينظر ببسمة ماكرة، والفلبينى ربما يتساءل لماذا لم يطوعونى كما طوعوه؟ لكن سؤالى رغم وضوحه ظل صامتا».

«أما مَنْ على المنصة فقد انحنوا مثل قضاة الأفلام يتهامسون، وأمسك الزنجى بالميكروفون وقال : واضح أن هناك سوء فهم، سواء فى الترتيب أو فى العلاقة، فالمقصود من هذه الندوة أن نشرح نحن دورنا، أما أسئلة سياسية كهذه فيمكن الحديث عنها مع مسئولين آخرين».

«فقلت مقاطعا : أنتم إذن تتعاملون معنا على أساس أننا طلاب فى مدرسة ثانوية، نستمع ونسكت، فإذا كانت هذه هى الديمقراطية الأمريكية فقد عرفتها، لكننى لا أقبل التعامل على أساسها، وأنسحب».

«وتدارك مدير المشروع (المسئول عن رحلتنا) الأمر وقال : يبدو أن ثمة خطأ فى الترتيبات، فالبرنامج مشحون إلى درجة أنه لا يكفى للنقاش، وسنكون سعداء لو أمكننا أن ندير حوارا معكم».

(١٥)

ويسرع رفعت السعيد فى روايته ليثبت دلائل نجاحه فى خطواته التى أربك بها الأمريكيين أصحاب ديمقراطية التلقين :

«وابتداء من اليوم دعيت منفردا لإلقاء محاضرات فى جامعة «جورج تاون» ورحبت بذلك، وانفردوا هم بالآخرين».

«لكن الأمر لم يكن كله ساذجا إلى هذا الحد، ففى البنتاجون (حيث يتجمع أكثر الأمريكيين خبرة وذكاء فى اعتقادى) دار حوار عميق وصاخب واستدام بقدر ما استطعنا نحن، وكذلك فى الكونجرس».

(١٦)

ولا يهمل رفعت السعيد الفرصة السانحة فى أحداث مذكراته وسياقها حتى يتحدث عن حقيقة مشاعر الأمريكيين تجاه السوفييت، وما كانت تعنيه حرب الكواكب بالنسبة للأمريكيين:

«وفى ندوة مهمة عقدت فى بوسطن عن «أمريكا فى مرحلة انتقال الرئاسة»، وفى وزارة الخارجية.. فى جلسة طويلة ومنفردة مع المسئول عن ملف مصر، ثم لقاء جماعى صاخب مع مَنْ أسموه مسئول «ملف السلام والتعايش السلمى»، غرفته مغلفة ببوسترات تدعو للسلام، تدهشك بكثرتها وإصرارها، وكأنك جالس فى صالة مقر مجلس السلام العالمى فى هلسنكى، لكن المحتوى مختلف، بدأت أنا الحديث عن مشروع حرب الكواكب، تحدث الرجل بطلاقة مَنْ يتقن الموضوع، ويتقن الحديث عنه، وأكد أن مثل هذا المشروع «وقائى»، وأن أمريكا لا تنوى حال استكماله أن تستخدمه، قلت: تنفقون عشرة مليارات (هو ذكر هذا الرقم) ولا تستخدمونه، وماذا لو لاحقكم السوفييت وصار صراع هناك فى الكواكب؟ قال بهدوء الواثق: هم لا يستطيعون، اقتصاديا، قلت: فإن لم يستطيعوا؟ قال بذات الهدوء: فليركعوا».

«ضحك الأفغانى وقال بإنجليزيته المميزة: دعوهم لنا نحن نركعهم، فرد الأمريكى: لا.. لا، نحن نريد أن نركعهم تماما».

«قلت بملل: والعالم، فقال بهدوء: العالم سيكون أفضل وهم راكعون، واستدرك قائلا: هذه وجهة نظر شخصية، وأعرف أنك ضدها، لكن لا بأس فأنت تحب الحوار (أسلاكهم متصلة جيدا، فقد عرف بموضوع إلحاحى على الحوار)».

(١٧)

ويتطرق رفعت السعيد إلى نمط آخر من أنماط اللقاءات التى فرض عليه حضورها فى أمريكا، وهو يجيد تقديم صورة مشوهة من تفكير الأمريكيين المتغطرس تجاه مصالح الطبقات العاملة:

«لم تكن اللقاءات كلها من هذا الصنف، فعندما زرنا مقر «اتحاد العمال» كان المتحدث ساذجا بصورة أدهشت الجميع، سألته (وكنت مَنْ يسأل فى أغلب الأحيان، فقد كنت كما قال مدير المشروع وهو يودعنى الغلطة الوحيدة): ماذا تفعلون للمتعطلين؟».

«قال: نحن اتحاد للعاملين وعندما يفقد العضو عمله فإنه يفقد عضويته».

«وقلت: وماذا عن الألوف الذين يقيمون فى الشوارع بلا مأوى؟».

«قال: معلوماتى أن هناك (آلافا) من المساكن جاهزة للتأجير».

«قلت: لكنهم لا يملكون الإيجار».

«فأجاب: وهل مطلوب منى أن أوزع عليهم نقودا؟».

«ورويدا رويدا أبدأ فى تفهم العقلية الأمريكية، والفهم الأمريكى».

«ورويدا رويدا أستشعر رغبة عارمة فى الرحيل».

(١٨)

وعلى الجانب الآخر من الشعور بالغربة يروى الدكتور رفعت السعيد قصة محاولة جسورة قام بها أو اندفع إليها لاختراق المجتمع الأمريكى، لكنه يشعر فى أثنائها بالغربة، ويشعر بعدها بالعزة حين اكتشف الحقيقة، ومن اللافت للنظر أن هذه الحقيقة تمثل حقيقة مهمة جدا من حقائق صراعنا مع الإسرائيليين ودعاواهم المتعددة من أجل إكساب اعتداءاتهم أبعادا تاريخية أو عقيدية من قبيل الحديث عن القبيلة العبرانية الثالثة عشرة:

«. . . فيما تمرق السيارة الفارهة فى أحد الشوارع التالية للشارع رقم ١٤ فى واشنطن (منذ اليوم الأول يحذرونك لا تتخطى الشارع ١٤ ، فالجريمة هناك دائمة ومتكررة، بل ومستمرة وبلا انقطاع، وربما بلا مبرر)، لمحت لافتة مكتوب عليها بالعربية «رابطة العبرانيين المسلمين» طلبت من مرافقتى التوقف، قالت: ممنوع، هذه منطقة خطرة، ألححت وتوقفنا، الباب مفتوح، دخلنا، كلهم زنوج، جلابيات بيضاء، طواقى، مسابح فى الأيدى، قلت: السلام عليكم، ردوا بعربية توحى بأنهم لا يعرفون سوى كلمة أو اثنتين، قدمت نفسى، وبدأت أستمع».

«إنهم مجموعة مريبة، ذات أفكار دينية تمزج فى دهاء بين اليهودية والإسلام، تقوم الفكرة الأساسية على أنهم سلالة القبيلة العبرانية الثالثة عشرة، والمعروفة تاريخيا باسم القبيلة التائهة أو المفقودة، وأن القبيلة تاهت من جموع اليهود المغادرين مصر مع موسى، واتجهت إلى النوبة، ثم اعتنق أبناؤها الإسلام».

«ثم دورة غريبة من شرح التعاليم الدينية، لا هى بالإسلام، ولا هى باليهودية، بين بين، وشوق غريب مصطنع للنوبة: أرض الأجداد، وربما أيضا أرض الميعاد».

«وأستشعر قدرا من الدهشة الممتزجة بشكوك اعتادت أن تقفز خلال زيارتى الأمريكية، وجهت أسئلة فى العقيدة فاكتشفت تلفيقا مفتعلا، ونفاد صبر فى النقاش ربما مبعثه ضعف الحجة، وضعف المنطق، وعندما وصلت بهم إلى مأزق نقاشى انتزعتنى مرافقتى من يدى بعنف معتذرة بأننا على موعد مهم، ولم نكن على موعد، وفى السيارة لامتنى بشدة على نقاش محرج، فى مكان خطر، ومع أناس أشد خطرا من المكان».

. . . . . .

. . . . . .

«وبعدها بعدة سنوات تتكشف هذه المحاولة هنا فى أسوان عندما يأتى فوج منهم بحجة دراسة الحضارة النوبية، وبذات الادعاءات المعتقدية، وبهدف الغوص فى العمق النوبى».

(١٩)

وبعد كل هذا التحفظ الشديد على الأمريكيين، وعلى جوانب مختلفة ومتعددة من تجربتهم التى دعوه للاطلاع عليها، فإن الدكتور رفعت السعيد يعبر عن سعادته أنه استطاع الثأر من الأمريكيين وأنه تركهم فى اللحظة المناسبة دون أن يستمتع ببلادهم على نحو آخر:

«. . . كانت ملاحظات عديدة تتراكم، أكثرها تأثيرا هو الرغبة الملحة فى التأثير فيك تأثيرا مخططا، ومبرمجا، ومعدا من قبل، دون أن يعطيك فرصة لحوار حقيقى، أو يعطيك فرصة لفهم الأوضاع، وتفهمها تفهما موضوعيا».

«وانتظرت حتى انتهت فترة المقابلات، والمناقشات، والندوات، أى ما يسمونه الشق الثقافى من الزيارة، ويتبقى أسبوعان للترفيه، زيارات لأجمل مناطق أمريكا: كاليفورنيا. . لوس أنجلوس. . إلخ».

«كان مسئول المشروع يمن علينا وهو يعلن اختتام الشق الثقافى قائلا: «تابعتم وتعبتم، تستحقون الآن الجائزة، أسبوعين من زيارات ممتعة»، كلمة جائزة أوجعتنى، ربما لأنه نطقها بترفع، ووجدتنى أقول: أنا معتذر، وأكتفى بالشق الثقافى، وأرجو ترتيب عودتى. صعق، وصمت، وقد كان».

«بعد عودتى زارنى المستشار السياسى للسفارة، كان مندهشا، سأل عن ملاحظاتى التى دفعتنى لقطع الرحلة، أجبت بصراحة».

«فى اليوم التالى مباشرة عاد ومعه سيدة من برنامج التبادل الثقافى (المسئول عن سفرى) استمعت. . دونت. . وفيما كانا يغادران قال المستشار السياسى وهو يحاول أن يبدو مازحا: «حاولت أن أصطادك، فإذا بك توجه إلىّ طلقة قاتلة».

«ومادام أرادها أن تبدو كمزاح، فقد ضحكت. . واكتفيت بالضحك».

(٢٠)

ومع هذا كله فإن رفعت السعيد يحدثنا بصدق شديد عن استمرار غربته مع

التوجهات العقلية التى تحكم سياسات العالم وتصرفاته، فيروى فى مواضع عديدة كيف أتيح له أن يلم ببعض المعلومات المبكرة عن توجهات وخطط مستقبلية كان الغربيون (والأمريكيون على وجه التحديد) يعملون من خلالها، منذ مرحلة مبكرة، على إنهاء وجود التوجه السوفييتى فى السياسة الدولية!! وقد جعلته هذه المعرفة محصنا ضد الاندهاش من الأحداث التالية عند وقوعها.

وعلى سبيل المثال فإنه يروى كيف أنه عرف مبكرا بما كان يخطط فى الغرب لتداعى الاتحاد السوفييتى وإخفاء نفوذه من على الخريطة العالمية، وهو ينسب هذه المعرفة إلى الصحفى الفرنسى اللامع أريك رولو مشيرا إشارة ذات معنى!! إلى أنه مصرى قديم، وإن كان فرنسى الجنسية:

«... وتمضى سنوات عديدة، وتبقى ولم تزل قصة راسخة فى ذهنى لا أنساها، ولن أنساها، ولست أعتقد أن صاحبها قد نسيها».

«كان فى المؤتمر (مصرى قديم هاجر إلى فرنسا ليصبح واحدا من ألمع الصحفيين، فى أشهر جريدة فرنسية «لوموند» وليصبح فيما بعد دبلوماسيا بارزا)، وبحكم صداقة قديمة تحادثنا طويلا، وتعاون معى كثيرا فى إنجاح المؤتمر، عندما تخطى دور الصحفى ليلعب دورا مؤثرا لإقناع الإسرائيليين بقول صياغات كانوا يتحسبون من قبولها».

«وطوال انهماكى فى المؤتمر كان يقول: عايزك ضرورى فى حديث طويل، وأخيرا على العشاء جلسنا فى مطعم منعزل».

«وفيما يوشك العشاء على الانتهاء فاجأنى قائلا: سأحكى لك شيئا، أنا لم أصدقه لكنه حدث، عدنى فقط ألا تنطق به لأحد لأن تسربه سيعنى أننى سربته، وسوف يضرنى هذا كثيرا فى عملى الصحفى، وبدأ يحكى دون أن ينتظر أن أعده، فقد كان بحاجة إلى أن يفضى لأحد بهذا السر الكبير، ففى بعض الأحيان يكون السر أكبر من أن تحجزه فى صدرك».

«كان عائدا لتوه من أمريكا، هناك التقى سيسكو (مهندس السياسة الخارجية الأمريكية آنذاك)، تحدث سيسكو طويلا عن رؤية الأمريكيين لعالم جديد خال من

الحرب الباردة. كانت الثقة البالغة والمبالغ فيها تغلف كلماته وتقويماته، وحاول أريك أن يلفت نظره إلى أنه ليس وحده فى هذا العالم، فاقتاده من يده إلى خريطة للعالم معلقة على حائط مكتبه، نجوم حمراء متناثرة فى شتى مساحات الخريطة: آسيا، وأوروبا، وإفريقيا، وكوبا، وكل نجمة تشير إلى بلد اشتراكى (أو يدعى أنه اشتراكى)، أو كما قال سيسكو: تشير إلى منطقة نفوذ للسوفييت».

«فجأة قال سيسكو باعتداد مذهل: سجل فى أجندتك، نحن الآن فى بداية عام ١٩٧٣، وأحفر فى ذاكرتكم هذه المعلومة، بعد عشر سنوات لن تكون هناك نجمة واحدة حمراء على هذه الخريطة».

«إريك حكى الحكاية بلا اكتراث، وأنا تلقيتها بلا اكتراث، ولم أجد ما يبرر أن نتناقش فى مثل هذه «الأكذوبة» أو هذا «الادعاء»، لكنها بقيت مترسبة فى أعماق ذاكرتى، حتى كان الزلزال الذى أطاح بأغلب نجوم الخريطة، فاستعدت الحكاية لتقفز فوقها أسئلة عديدة، هل كان سيسكو جادا؟ وهل كان ثمة مخطط فعلا، مخطط معد ومتقن ومحدد إلى هذا الحد؟ أم أنها المصادفة؟ على أية حال فإن حلم كابوس سيسكو لم يتأخر كثيرا عن الموعد الذى حدده».

(٢١)

وفى خضم هذه الأحاديث المتصلة عن اغترابات متواصلة ومتعاقبة.. يحدثنا رفعت السعيد فى بعض فقرات مذكراته بإنصاف شديد عن مجموعة من الذين يرى حقا لهم عليه أن يثنى على سلوكهم، وعلى تاريخهم، وعلى ما تبدى له من صفاتهم الرائعة التى وثقت علاقاتهم به.

ويأتى الأستاذ عبد الرحمن الخميسى فى مقدمة هؤلاء، وهو يحدثنا عن تجربته المبكرة فى معرفته حين قدر له أن يلقاه وجها لوجه من دون أن يعرف أنه (وهو الكاتب الكبير المعروف) شيوعى منظم ومكلف بدور، وقد أكبر رفعت السعيد فى عبد الرحمن الخميسى أن يصبح شيوعيا وهو فى قمة شهرته!!:

«فى يوم من يوليو ١٩٥٣ تلقيت تعليمات أن أستأجر شقة جديدة، ثم أن أذهب إلى

عنوان فى الظاهر لأصطحب رفيقا هاربا من المعتقل (كان الهارب الرفيق ضياء بدر كسرت ساقه وهو يقفز أثناء عملية الهروب المثير من معتقل روض الفرج، وكان المطلوب أن أكفل له مكانا آمنا)، صعدت فى العمارة الفخمة فى الظاهر وأنا أستعيد كلمة السر التى بموجبها سأتسلم الرفيق الهارب، دققت الجرس، فتح الباب، انسكب علىّ سيل من الدهشة بل الذهول، أمامى عبد الرحمن الخميسى أكبر كتّاب هذا الزمان. أى خطأ وقعت فيه؟ هل أخطأت فى الشقة؟ كنت مرتبكا، وصغير السن، وأبدو حتى أصغر سنا من الحقيقة. تراجعت رأسى المرتبكة لترى رقم الشقة، تأكدت وجمعت أطراف إرادتى وقلت العبارة المتفق عليها «خالى عندكم؟»، لاحظ ارتباكى ولم يغفر لى صغر سنى، فزادنى ارتباكا عندما سأل مبتسما: «خالك مين يا ابنى؟»، سقط قلبى فى أعماقى وأوشكت أن أنسحب جريا، لكنه سحبنى بهدوء إلى الداخل لأجد «خالى» منتظرا فى الصالون».

«ما الذى أتى بهذا الرجل إلى هذا المعترك؟ ضمت «حدتو» كثيرا من المثقفين، لكن الخميسى كان الأكبر والأشهر، الجميع أتوا طلابا أو مبتدئين وكبروا فى صفوفنا، أما هو فقد أصبح شيوعيا وهو فى قمة شهرته».

«فكيف؟ ولماذا؟».

«وبقيت أسئلتى تحيرنى حتى التقينا مرة أخرى».

«فى سجن مصر (فى المكان الذى يحتلها الآن منزل كوبرى السيدة عائشة وما يتلوه من مبان)، كنت الأصغر سنا، وكان (أى: عبد الرحمن الخميسى) الأكثر شهرة، وكانت زنزانته منتدى لمن أراد حديثا طليا، وشجيا وممتعا».

«صمت طويلا، ولم تزل الزنزانة تنتظر منه ما تبقى من أسطورته».

«انفجر بأبيات من الشعر، دوختنى فيما بعد كى أعثر عليها، ظللت أحتفظ بها مكتوبة لفترة، (وهل يمكن لسجين أن يحتفظ بشىء) وضاعت منى، لكن كلماتها الأخيرة كانت مطبوعة فى ذاكرتى، وبها اهتديت إلى القصيدة الكاملة».

علام أضحك يا ويلاه من زمنى		وشاطئى فوقه الأهوال ترتطم
لكنها ضحكة البركان قاذفة		من قلبى النار أذكى أصلها الألم
إنى أقول لهذا الظلم فى صلف		اشرب دمائى وانمل أيها النهم
هيهات تبلغ إذلالى وتخضعنى		إنى قوى عتى ثائر برم»

. . . .

. . . .

«وقبضوا عليه، فى السجن استدعوه لمقابلة عبد الناصر، عاد من المقابلة لم يقل لأحد شيئا».

(٢٢)

لكن رفعت السعيد سرعان ما يستطرد ويروى لنا ما حصل عليه من أسرار من خلال ثقة عبد الرحمن الخميسى به حين التقيا فى بغداد بعد أن كان عبد الناصر قد أصبح فى ذمة الله:

«بعدها وفى بغداد عندما التقينا هناك حكى لى:

«بدأ عبد الناصر معاتبا: مبسوط كده، أنت عملتها وقلبت الدنيا ضد الحركة، وتسببت فى إغلاق «المصرى»، وفى حشد الناس ضدنا. سأله الخميسى: لماذا فصلتنى من «المصرى»؟ أجاب عبد الناصر: مش أنا. السفارة الأمريكية هى التى طلبت، حمل رسالة السفارة الصحفى يوسف صباغ، وألح الأمريكان (ألح الخميسى وهو يحكى أن عبد الناصر لم يكن خاضعا للأمريكيين تماما، لكنها البرجماتية، لم لا يضحى بالخميسى ليرضى الأمريكيين ولو برهة)».

«فى ختام المقابلة التى انتهت عاصفة قال عبد الناصر: أنت كنت عايز تقلب النظام».

«وصاح الخميسى: أنا كنت عايز أعدله، واعتبر عبد الناصر هذه العبارة هجوما لا يغتفر».

«ضحك الخميسى وهو يختتم حكايته «هى جت كده . . أحيانا كلمات ما تصطحب معها ردها بشكل طبيعى»، وسأله عبد الناصر : عايز أى خدمة، فأجاب فى إباء «لا».

«لا» هذه كانت توجعه تماما، فأطفاله الصغار كانوا بلا مورد، وأحيانا بلا طعام، لكن الخميسى كان كما كان دوما «قوى عتى ثائر برم».

(٢٣)

ويلخص رفعت السعيد حياة يوسف منصور صديق وجهاده من أجل الوطن على نحو غير مسبوق، هو يروى هذه الحياة على لسان يوسف صديق نفسه، وإن كانت الصياغة تحتمل تدخل رفعت السعيد فيها، ولنقرأ هذه الصياغة الموحية التى حرص رفعت السعيد أن يبدأها بأبيات للجواهرى كان يوسف صديق يتمثل بها على الدوام :

عدت الضباع عليك عاوية ظنا بأنك مـأكل جـزر

فتـذوقتك فقـال قائلها إن الغضنفر لحـمه مـر

«هكذا كان يوسف صديق يهدر دوما بأبيات استعارها من «الجواهرى» كلما حاولت يد البطش أن تنال منه، أو تبذل قصارى ما تستطيع كى تدفعه لتراجع . . أو بعض تراجع».

«حكيت لكم حكايتى معه . . لكن حكايته مع الوطن تتألق فى زهو متجدد».

«كان أبوه ضابطا فى الجيش، أدمن معركة الصراع ضد الإنجليز، لكنه رحل ويوسف بعد صغير، فتولى خاله تربيته، الخال (يوزباشى محمد توفيق) هو أيضا ثائر ضد الإنجليز، يستقيل من الجيش احتجاجا على تسلطهم على مقدراته».

«على ذات الطريق يمضى . . يلتحق بالكلية الحربية بحثا عن ثأر أبيه وخاله، وثأر الوطن بأكمله، وفى عام ١٩٣٣ يتخرج ضابطا».

«الضابط الشاب . . شاعر أيضا (إنه ميراث عائلى)، شعره يتفجر حماسة تلهب المشاعر الوطنية لزملائه الضباط إذ يدوى :

إنـا وهـبنا للجـهاد نفوسا　　لا نبتغـى رتبـا ولا أطماعا

والمؤمنون المخلصون يزيدهم　　ظلم الحوادث شدة وصراعا

«كان الجيش يغلى بالوطنية، ويصوغ يوسف غليانه شعرا:

عار الوظيفة أن نضام بها إذا　　كنا الرجال ولم نكن أتباعا

ونفوس أهل الحق تأبى حرة　　وكـريمة أن تشـترى وتباعا

. . . . . .

. . . . . .

«بدأت (الحديث كما قلت ليوسف صديق) الاتصال بالإخوان المسلمين، لكنى انشققت عليهم لجمودهم العقائدى الذى لا يرضى ما أخذته على نفسى من ثورة، ولم يدم اتصالى بهم أكثر من شهور، ثم اتصلت بالشيوعيين فى النصف الثانى من الأربعينيات، وكنت مقدرا لدور الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية، وكان اتصالى بأحمد حمروش ضابط المدفعية، وقد أعجبنى فى الشيوعية أنها تغرس حب العدل فى النفوس، وتعمل لتحقيق السلام على الأرض، وإقامة المحبة والتعاون بين الناس، فهى لا تفرق بين الناس لأنسابهم، ولا أحسابهم، وإنما تعمل على إلغاء استغلال الإنسان للإنسان، ولم أشعر لحظة أن فى تطبيق هذه المبادئ ما يتعارض مع عقيدتى الدينية، فقد داس الإسلام تيجان الأكاسرة والأباطرة بأقدام الشعوب، وبعد اعتقال عديد من قيادات حدتو وصلت الأمور إلى الحد الذى كنت أكتب فيه المنشورات باليد فى منزلى بثكنات الجيش فى العباسية، وكانت زوجتى (علية توفيق) تشاركنى فى ذلك».

(٢٤)

ثم يصور رفعت السعيد دور يوسف صديق المبكر فى حركة «حدتو» فى ضوء الظروف القاسية فى عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩، حيث توالت ضربات البوليس، وتلاحقت، لتدمر كثيرا من آليات نشاط حدتو:

«. . . ولم يكن من مفر سوى اللجوء إلى الضابط يوسف صديق وزوجته ليقوما بطبع ما هو مطلوب من نشرات ومنشورات، ويقول (أى يوسف صديق): «كنت أتأفف من روتينية العمل ومحدوديته، وطالما سألت «علية» فى ضيق: هى الثورة حتتعمل كده؟ وتبتسم لى مشجعة، وأبادلها الابتسام، ونكمل عملنا فى صبر وإصرار».

«وبدأ يوسف صديق فى خوض صراع فكرى فى صفوف حدتو، كان يستبطئ حركة الفعل السياسى والتنظيمى، وضعف ما هو متوقع من ثمار، وصعوبة توقع أى تغيير ثورى حاسم عبر مثل هذه الأدوات المحدودة الأثر والتأثير، ويقترح ويلح على ضرورة التحضير لفعل انقلابى عبر الجيش، وكانت حدتو ترفض».

«ويخوض يوسف صديق صراعه الفكرى، وربما لأول مرة فى التاريخ شعرا:

ضعوا الأقلام وامتشقوا الحساما ... فرب السيف قد حمل الوساما

وقولوا للذى يرجو خلاصا ... بتنسيق الكلام كفى كلاما

ومن نادى بغير الجيش يهدى ... وعن نور الحقيقة قد تعامى

«ويفوح العطر الثورى ليوسف صديق ليغمر مساحة واسعة، وتصل نسماته إلى جمال عبد الناصر».

«أذنا جمال عبد الناصر التقطتا أن يوسف صديق يعقد اجتماعات سرية لضباط فى الجيش فى منزله، وأن رجال الحرس الحديدى يراقبونه».

. . . . . .

. . . . . .

ربما نتوقف هنا لنذكر القارئ بما يعرفه بالبداهة من أن الفضل فى ذلك لم يكن لأذن جمال عبد الناصر بقدر ما كان لأنور السادات الذى راقب الحرس الحديدى ووظفه لمصلحة مشروع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

. . . . . .

. . . . . .

(٢٥)

ونعود إلى ما يرويه رفعت السعيد:

«وأرسل (أى عبد الناصر) إليه (أى إلى يوسف صديق) مَنْ يحذره، ثم أرسل إليه يدعوه للانضمام للضباط الأحرار، الضابط وحيد رمضان، وكان تلميذا ليوسف صديق فى الكلية الحربية، حمل رسالة عبد الناصر إليه، رد يوسف صديق كان سريعا وحاسما».

«والغريب أن عبد الناصر لم يعرف بحقيقة الانتماء التنظيمى والفكرى ليوسف صديق إلا بعد الثورة».

«وخلال لحظات الاستعداد الأخيرة ليوم الثورة كان يوسف كنزا مهما، كان الأعلى رتبة فى كل الضباط الأحرار بعد محمد نجيب (قائمقام)، وفوق هذا كان قائدا للكتيبة الأولى مدافع ماكينة، كتيبة بالعريش، لحسن الحظ صدر قرار بنقلها إلى القاهرة، حضر مع طلائعها للقاهرة، وبهذه الطلائع خاض معركة يوليو».

«عبد الناصر وعامر زاراه فى بيته يوم ٢٠ يوليو وجداه مريضا، صدره ينزف دما، قالا بأسف حزين سنفتقدك، هو تذكر ثأره القديم، وعشقه المتجدد، أكد أنه سيشترك معهم».

«مساء يوم الثورة حقنه الطبيب ليوقف النزيف، وانطلق بقواته».

«فى الطريق قابلهم قائد فرقته اللواء عبد الرحمن مكى، وأصدر له أمرا بالعودة إلى الثكنات. العسكريون لا يعصون أوامر القادة، لكنه ببساطة أشهر مسدسه فى وجه قائده قائلا فى حزم: أنت مقبوض عليك يا سيادة اللواء.. واصطحبه مقبوضا عليه».

«سألته فى حوارى معه: كيف فعلها؟ قال: لو ترددت لحظة لتردد الجميع وضاع كل شىء».

«ثم ألقت قواته القبض على شخصين يتطلعان فى دهشة إلى الطابور المتحرك وأمامه سيارة تحمل «بيرق» لواء، المقبوض عليهما: عبد الناصر وعامر».

(٢٦)

ونأتى إلى فقرة ذكية يحصل فيها رفعت السعيد من يوسف صديق على حقيقة موقفه من رجال الثورة الذين غدروا به :

«سألته فى ذات الحوار : ألم تفكر ساعتها فى أن تستبقيهما أسرى، وتقود أنت الحركة؟ أجابنى فى غضب لا يخفى نفسه : نحن يا ابنى ثوريون . . ولسنا أوغادا)» .

«أفرج يوسف صديق عن الضابطين، ومنهما علم أن أمر الثورة قد اكتشف، وأن قادة الجيش يتجمعون فى مبنى القيادة العامة لتحريك القوات الموالية للملك، فى ثبات أكد : العجلة دارت، ولا مجال للتراجع، وإن كانوا فى مبنى القيادة فلنذهب إليهم» .

«وذهب إليهم، أوقعهم فى مصيدتهم، قبض عليهم جميعا، وعلى مكتب القائد العام جلس يوسف صديق ليدير عملية الاستيلاء على السلطة، بعدها بساعات دخل عبد الناصر، ببساطة تحتاج إلى طاقة ثورية عالية وقف يوسف صديق ليجلسه مكانه، وهنا تكمن المفارقة كلها، فهم لم يحفظوها له، ولا تمسكوا بعهدهم كما تمسك، ولا أخلصوا له كما أخلص، حاولوا تطويعه، لكن «إن الغضنفر لحمه مر» .

«تصادموا معه وأثقلوا عليه، ثم طردوه وطاردوه «إن الغضنفر لحمه مر» .

«قبضوا على زوجته «علية» وألقوا بها فى السجن، ثبتت كما ثبت، ترفعت كما ترفع» .

«إن الغضنفر لحمه مر» .

«وكما اعتاد دوما فقد أدار صراعه مع عبد الناصر شعرا» .

«ومن السجن الحربى (١٩٥٤) حيث سجن، وكانت زوجته علية هى أيضا فى سجن النساء، كتب قصيدته الشهيرة التى أسماها «فرعون»، موجها كل غضبه ضد عبد الناصر :

ألا أيهذا الدعى اللعين ألا أيهذا الشقى الحرون
لبست المسوح وضللتنا ولما حكمت كشفت الفنون

«ويعاتبه على سجن زوجته ورجاله فى الجيش :

أعرضى يباح ويلقى به ... على ناظريك بقاع السجون
وكل رجالى غدرت بهم ... أكل رجالى من المجرمين

«ثم يذكره بليلة يوليو وكيف قبض عليه هو وعبد الحكيم عامر :

وقد كنت يوم الوغى هاربا ... تخاف الظنون وتخشى العيون
فقد كنت مختفيا فى ثياب (م) ... تباعد عنك مثار الظنون
ولما وقعت وعبد الحكيم ... بأسر رجالى وما يعلمون
فأنقذت روحيكما من هلاك ... ورحت بنفسى ألاقى المنون

«وبرغم تسرب هذه القصيدة من السجن الحربى وتوزيعها بكثرة على ضباط الجيش، وربما بسبب ذلك، وبسبب عدم رغبة عبد الناصر فى تصادم مفتوح مع أحد أبطال يوليو، أفرج عنه».

«ويظل يوسف صديق شوكة فى حلقهم، يحترمونه، يقدرونه أحيانا يذكرون له دوره الشجاع والأساس فى إنجاح الثورة، لكنهم قط لم يستطيعوا ابتلاعه».

(٢٧)

أما خالد محيى الدين فيحظى بأروع صور تقدير رفعت السعيد وأبلغ العبارات الدالة على هذا التقدير، وربما لا نجد فى أدبياتنا السياسية كلها مثل هذه العبارات الممتنة من صديق لصديق أكبر منه، أو فلنقل من مريد لشيخه :

«كانت معرفتى بخالد محيى الدين بداية لحياة جديدة، تتراكم فيها دروس خالد محيى الدين فتصبح منهجا وأسلوب حياة».

«وأحاول أن أكون جديرا بالانتساب تلميذا فى مدرسته، بجهد جهيد أحاول دون أن أرتقى، مهما حاولت، إلى مرتبة الأستاذ، مكتفيا بشرف الانتساب إلى الأستاذ».

. . . .

. . . .

«نظر إلىّ غاضبا فى تواضع عندما أصدرت كتابا عزيزا على قلبى «تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٥٢» ورصعته بإهداء (لعله كان إهداء لنفسى أكثر منه إهداء له) يقول: «إلى خالد محيى الدين.. أخا وصديقا وأستاذا».

«قال: أخا وصديقا نعم، أما أستاذا هذه فلا مبرر لها».

«ولعله نسى أنه ظل ولم يزل أستاذا ليس لى وحدى، وإنما لجيل كامل من الرجال، كل منهم يحاول أن يكون بالنسبة له مريدا مؤتما به».

. . . . . .

. . . . . .

«ولن أحاول هنا أن أحكى حكايتى معه، لا كلها، ولا حتى بعض منها، فلا هذا ممكن، ولا هو سهل، فكيف لحياة امتدت بلا انقطاع من عام ١٩٦٤ وحتى الآن أن تروى هكذا ببساطة فى صفحات، وكيف لعلاقة تمثل بالنسبة لى الشىء الأكثر أهمية أن تختزل فى أسطر، أو حتى فى عدة كتب».

«لن أحاول، فلا هذا ممكن، ولا هو مطلوب، أريد فقط أن أقول إن يدى خالد محيى الدين قد تلقفتا قطعة صلصال خارجة لتوها من السجن، لتعمل وباهتمام على صياغتها، أو بالدقة إعادة صياغتها لتتلاءم مع الحياة، ولتصبح قادرة على تحدى هذه الحياة».

«ذلك النوع من التحدى الصامد والهادئ الثابت والمبتسم الذى أتقن خالد محيى الدين فنونه».

«لن أطيل.. أقول فقط ببساطة: هاكم صفحات كتابى».

«كل جملة كاملة فيه، وكل سطر حسن هو بصمة لخالد محيى الدين، وما هو غير حسن فهو منسوب إلى استعصائى على ما حاول من تصويب وتعليم».

«ومدى الحياة.. وما بعدالحياة سأظل لخالد محيى الدين ممتنا، ومؤتما به».

«وسأظل دوما مستظلا ظليل صداقة راهن الكثيرون على فصمها دون جدوى، فهى فوق كل نوازع الانفصام».

«وسأظل مدى الحياة مستمتعا برحيق أخوة ذات غلاف وثيق، وحنان دافق، وقدرة دائمة على التجدد، والتلاؤم، والفهم المتبادل، حتى دون حديث مباشر».

«إنها علاقة لا تتكرر».

«لأن خالد محيى الدين رجل لا يتكرر».

(٢٨)

ومن بين الأوروبيين جميعا يتحدث الدكتور رفعت السعيد أيضا عن أستاذه الألمانى راثمان حديثا حافلا بالحب والحرارة، لكنه مع هذا لا يخلو من ملامح حديث صاحب المذكرات نفسه عن غربته:

. . . . . .

. . . . . .

«على يديه تعلمت فنون الكتابة الأكاديمية، والبحث والدراسة، وبتشجيع منه بدأت هذه الرحلة المضنية لكتابة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، أشعر دوما أننى مدين له بدين لا يمكن الوفاء به».

«كان عضوا فى اللجنة المركزية للحزب، مستشرقا مرموقا عالميا، صعد فى السلم الأكاديمى حتى أصبح عميدا للجامعة، وهو منصب مرموق جدا».

«كان يتحمس كثيرا عندما يتحدث فى التاريخ، أما عندما يأتى إلى السياسة يتأنى.. يهدأ، ولا يبالغ، إلى درجة أن البعض من رفاقه كانوا يتشككون فى مدى حماسته للماركسية، لكنه كان ماركسيا رائعا».

(٢٩)

وسرعان ما ينتقل رفعت السعيد إلى الحديث عن جوهر موقف راثمان المفكر الماركسى حين وقعت الواقعة وسقط حائط برلين وانتهى الاتحاد السوفيتى:

«وعندما وقع الزلزال كنت حريصا على أن أعرف ماذا فعل».

«زارنى جلود الصديق القديم، ترك وزارة الخارجية، أو بالدقة فُصل، لأنه صمم أن يواصل عضويته فى الحزب، سألته أول ما سألت عن راتمان، قال بحزن: ترك كل شىء، انزوى فى بيته، وحملته رسالة عتاب، كيف تترك رفاقك فى هذا الزمن الصعب؟».

«بعد فترة جاءنى الرد:

«أعترف بالخطأ، لكننى لا أستطيع، وضعى مختلف، كنت مسئولا، كنت عضوا فى القيادة، وكنت مدرسا فأستاذا فعميدا للجامعة، فإذا كانت هناك ثمة خديعة فأنا أكثر من ردد هذه الخدعة، ضميرى غير مرتاح، عيناى لا تتجاسران على الالتقاء بعينى ابنتى، لم أزل عاجزا عن أن أقدم لها إجابة مقنعة، تفسر كل ما كان، وتبرر كل ما قلنا وكل ما فعلنا، فإذا كنت لا أستطيع أن أواجه ابنتى، فكيف تطلب منى أن أواجه الناس، لست منكرا لشىء، فقط أنا لا أستطيع، فاعذرنى».

. . . . . .

على هذا النحو أنهى رفعت السعيد هذه الفقرة، وقد كان جديرا به أن يختم بهذه الفقرة نفسها الجزء الثانى من مذكراته أو كتابه كله، لكن رفعت السعيد لحسن الحظ كان قادرا على أن يواجه الناس، وأن يقدم لهم أشياء جميلة أخرى، منها هذه المذكرات.

***